موقف الاستشراق من نزول الوحي

م.م. حسين نبيل جواد
جامعة الكوفة

Orientalist perspective on the revelation of the Quran

Asst.Lect. Hussein Nabil Jawad
University of Kufa
Email: hussainalhaqani@gmail.com

ملخص البحث

يتناول البحث موقف الاستشراق من نزول الوحي ، مركزًا على المنهجية التي نظر بها المستشرقون إلى ظاهرة الوحي القرآني ، وتفسيرهم لها. يبدأ الباحث بتوضيح مفهوم الوحي في اللغة والاصطلاح وأنه اتصال خفي سريع بين الله وأنبيائه ، كما يبيّن صور الوحي في الرسالة النبوية كالرؤيا الصادقة، والوحي بواسطة جبريل ، والوحي المباشر من الله تعالى.

ثم ينتقل إلى عرض المواقف الاستشراقية المختلفة من الوحي بدءًا من العصور الوسطى حيث اتسمت بالتشويه والاتهام بالخداع، مرورًا بالعصر الحديث الذي حاول تفسير الوحي تفسيرًا ماديًا أو نفسيًا؛ فعدّه بعضهم نوبات صرع ، أو حالات من الهوس أو الحدس الذاتي، كما عرض الباحث آراء بعض المنصفين من المستشرقين مثل وليم ميور، وتوماس كارليل الذين رفضوا تلك المزاعم وأكدوا صدق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

ويختتم البحث ببيان أنّ الدراسات الاستشراقية للقرآن والوحي كانت في معظمها مدفوعة بدوافع دينية ، وسياسية هدفت إلى الطعن في المصدر الإلهي للقرآن، مع الدعوة إلى مواجهة هذه الطروحات بالبحث العلمي الرصين المبني على المعرفة الدقيقة بتراث المستشرقين ومنهجهم.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق ، الوحي ، النقد الغربي للاسلام ، القرآن الكريم.

Abstract

This research examines the attitude of Orientalism to the descent of Revelation, focusing on how they appear to understand and interpret the phenomenon of Muhammad's revelation. The researcher begins by clarifying the linguistic and technical meaning of revelation as a subtle and rapid communication between Allah and His prophets. He then illustrates the various forms of revelation in the prophetic message, such as true visions, revelation through the angel Gabriel, and direct revelation from Allah.

Then he moves on to presenting the different Orientalist positions on revelation, starting from the Middle Ages, which were characterized by distortion and accusations of deception, passing through the modern era, which tried to interpret revelation in a material or psychological way; Some considered it to be epileptic seizures, cases of mania, or self-intuition. The researcher also presented the views of some the Just Orientalists such as William Muir and Thomas Carlyle, who rejected those claims and affirmed the truthfulness of the Prophet (peace and blessings be upon him and his family).

The research concludes by stating that Orientalist studies of the Qur'an and revelation were mostly driven by religious and political motives aimed at challenging the divine source of the Qur'an, while calling for confronting these arguments with

sound scientific research based on accurate knowledge of the Orientalists' heritage and methodology.

Keywords: Orientalism, revelation, Western criticism of Islam, the Holy Quran.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسل الله أجمعين وعلى خاتمهم الرسول الأمين محمد بن عبد الله وآل بيته الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين ممن تمسك بالدين وبعد..

فإنّ الله عزّ وجلّ أرسل نبيه محمد (صلى الله عليه واله وسلم) بالهدى والحق ، وأنزل عليه القرآن ليكون الحجة على خلقه ؛ وليكون نورا منيرا لهم ، وليكون الحافظ لدينهم. وكما كتب سبحانه وتعالى لدين الإسلام أن يكون آخر الأديان وخاتمها ، فقد كتب للقرآن أن يكون آخر الكتب وخاتمها ؛ ولهذا تعهد وتكفل بحفظه وصونه من الضياع حيث قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [1]، في هذا البحث سأحاول الإطلاع على بحث المستشرقين ،ونظرتهم للإسلام ، وللدين الإسلامي ، وللقرآن ، ولنبي الإسلام ﷺ، وأحاول ان احدد التطورات الايجابية التي جرت على نطاق فكرهم حول الإسلام ، وقد لاحظت أن أكثر ما يركز فيه هؤلاء المستشرقين من الموضوعات الإسلامية ، هما موضوعي القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة ، ولقد أدركت تماما ما يمثله القرآن ، الكريم كتاب المسلمين الأول من أهمية كبيرة عند المستشرقين ، وأدركت أيضاً بحثهم وتقصيهم حول جميع الروايات الإسلامية المتعلقة بموضوع القرآن ، سواء أكانت تلك الروايات ضعيفة عند المسلمين أم قوية ، فوجدت أنّ ما أهمله المسلمون في دراساتهم وبحوثهم تحت حجة حساسية الموضوع ، كان بمثابة الأرض الخصبة التي لم تزرع بعد ، انهال عليها عدد من المستشرقين بالبحث والدراسة والتحليل ، فراح البعض منهم يعلن عن توصله إلى ما عبر

(١) سورة الحجر، الآية : ٩

عنها بأنها نظريات في إعادة ترتيب النص القرآني ، وراح البعض الآخر يوظف ما حصل عليه من روايات إسلامية ولو كانت ضعيفة ؛ ليقول على اثر ذلك بأن القرآن هو كتاب محرّف من هنا تولد لدينا الدافع لدراسة هذا الموضوع ؛ ولأنّ المستشرقين قد تناولوا القرآن الكريم من جوانب عدة ، لغوية وتاريخية وتفسيرية ، فقد ارتأينا أن لا نخوض إلا بما يتعلق بالجانب التاريخي للقرآن ، كون الموضوع واسع لا يمكن لدراسة أكاديمية واحدة ان تفي بكل جوانبه ، وأنّ الغاية من دراسة رؤى المستشرقين وبيانها بما يتعلق بتاريخ القرآن الكريم هو لأجل ان نتعرف على حقيقة موقفهم من القرآن وأسباب هذا الموقف ، وأيضا لكي نستطيع أن ندافع عن كتاب الله ، ونبين كونه كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو صادر من حكيم حميد ، ولكي نبين ذلك لابد من أن نكون مطلعين تماما على رؤية المستشرقين والنقاط الجوهرية التي يثيرونها ، وإلا كيف نستطيع أن نبين للآخرين أنّه قرآن مجيد محفوظ بأمر العزيز القدير من دون أن نتعرف على نقاط البحث التي يحددها هؤلاء المستشرقون ، وقد تناولت في البحث الى النقاط التالية : أولًا مفهوم الوحي في الرسالة النبوية ثانيًا ورؤية الحركة الاستشراقية للوحي ، ثالثًا رؤية المستشرقين للوحي المحمدي ، رابعًا الرؤية الاستشراقية الأخيرة للوحي المحمدي .

أولًا: مفهوم الوحي في الرسالة النبوية

لم تنحصر كلمة الوحي بمعنى واحد بل تعددت وكثرت معانيها ، وأشار ابن منظور[1] أنّ كلمة الوحي تشير الى رسالة والهام وكلام خفي وكل ما ألقي إلى الغير .

فيقال : وحيت إليه الكلام وأوحيت ووحى وحيا وأوحى أي كتب ، وأوحى إليه أي بعثه ، وأوحى إليه أي ألهمه ويقال وحى إليه وأوحى أي كلمه بكلام يخفيه عن غيره ، ووحى إليه وأوحى بمعنى أوما[2] .

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري (:ت: ٧١١ هـ) ، لسان العرب ، ١٥ / ٣٧٩ ؛ الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ، (ت : ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م) ، مختار الصحاح ، ٢٩٧ .
(٢) ستار جبار الاعرجي ، الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي ، ٩ – ١٤

كما يبدو أنّ للوحي مداليل كثيرة يمكن أن نقف عليها عن طريق التحديد الذي جاء في النص الآتي : أولًا : في اللغة أنّ اصل الوحي إسرار وإعلام في خفاء ، ثانيًا : إنّ اشتقاق الوحي بمعنى السرعة لأنّ الوحي يجي بسرعة ويتلقى بسرعة ... ثالثًا : إنّ أصل المادة السرعة والخفاء معًا فالوحي : الأعلام السريع الخفي رابعًا : إنّ أصل المادة هو إلقاء الشئ إلى الغير.....[1]

فالوحي إذن هو الأعلام الخفي السريع مثلما أكد ذلك القرآن الكريم في آيات عدة ففي الإلهام الفطري للأنسان قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[2] ، وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [3] ، وفي الإلهام الفطري للحيوان كالذي في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [4] ، وفي الإلهام الآلهي الخاص بالأنبياء وهو ما يتعلق بالأوامر الإلهية التي لا تأتي دائمًا على صورة واحدة ، وإنما تتعدد وتختلف من صورة لأخرى كما ستلاحظ ذلك لاحقًا ، ولقد تشرف سيدنا ونبينا الكريم محمد بالوحي الإلهي طيلة مدة رسالته ، وبذلك التشريف الآلهي قد اشترك مع من سبقه من الأنبياء بهذه الميزة الشريفة ، فلم يكن وحي الأنبياء مخالف للوحي الاسلامي بل ظاهرة الوحي هي متماثلة عند جميع الأنبياء بدءًا من نبي الله نوح و إنتهاءً بالنبي ، هذا التماثل النابع من مصدر واحد ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ ؛ ولذلك فقد اكد القرآن الكريم على تسمية ما نزل على صدر محمد وحي لكي يشابه مدلول الوحي عند جميع الرسل والانبياء تشابه اللفظ الدال على المعنى نفسه[5]، وقوله

(١) المصدر نفسه ، ١٤

(٢) سورة المائدة ، الآية : ١١١ .

(٣) سورة النحل ، الآية : ٦٨

(٤) سورة النساء ، الآيتان : ١٦٣ – ١٦٤

(٥) مباحث في علوم القرآن ، صبحي الصالح ،٢٢

تعالى : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (١).

ثانيًا: رؤية الحركة الاستشراقية للوحي

صور الوحي القرآني : لم يكن الوحي على النبيّ محمد ﷺ على صورة واحدة بل تعددت واختلفت صور الإيحاء الآلهي إلى النبي محمد ، شأنه في ذلك شأن باقي الأنبياء ، ولقد حدد القرآن الكريم هذه الصور تحديدًا دقيقًا في قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(٢). الآية الكريمة توضح بجلاء صور عدة للوحي الآلهي ، فإنّ من مصاديق كلام الله تعالى ما يتلقاه الأنبياء والرسل منه جلّ وعلا بالوحي ، وعلى هذاغير موجب لعد الاستثناء في قوله إلّا وحيًا منقطعًا (كما يرى الطباطبائي) (٣)، بل هو الوحي والقسمان المذكوران بعده ما كان من وراء حجاب ، وما كان بإرسال رسول نوع من التكليم للبشر ، ثم أنّ ظاهر الآية الكريمة هو تقسيم الوحي إلى عدة صور ، إذ ظهر القسمان الأخيران بقيد الحجاب والرسول الذي يوحي إلى النبي في حين لم يقيد القسم الأول بشئ والظاهر أنّه أريد به التكليم غير الظاهرالخفي من دون أن يتم التوسط بواسطة بين الله تعالى عز وجل وبين النبي أصلًا ، وأمّا القسمان الآخران فيوجد بهما قيد زائد وهو الحجاب أو الرسول الموحي، وكل منها واسطة غير أنّ الفرق هو أن تكون الرابطة الذي هو الرسول يوحي إلى النبي بنفسه ، والحجاب واسطة ليس بموح وإنما الوحي من ورائه ، وإنّ القسم الثالث يكون : أو يرسل رسولًا فيوحي بأذنه ما يشاء وحي بتوسط الرسول الذي هو ملك الوحي فيوحي ذلك الملك بأذن من الله ما يشاء الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ (٤) والموحي مع ذلك هوالله سبحانه وتعالى كما قال ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا

(١) سورة النجم ، الآيات : ١ ٤٠
(٢) سورة الشورى ، الآية : ٥١
(٣) الميزان في تفسير القرآن ، الطباطبائي ، سيد محمد حسين ،٧٥
(٤) سورة البقرة ، الآية : ٩٧

إِلَيْكَ هُذَا الْقُرْآنَ﴾ [١]. وإنّ القسم الثاني : أو من وراء حجاب « وحي مع واسطة وهي الحجاب غير أنّ هذه الواسطة لا توحي كما في القسم الثالث وإنما ليبتدأ الوحي مما ورائه، وليس وراء بمعنى خلف وإنما هو الخارج عن الشئ المحيط به كقوله تعالى : ﴿وَاللهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [٢] ، ومن هذا الجانب ما قد أوحي إلى الأنبياء في مناماتهم ، وإنّ القسم الأول تكليم إلهي للنبي من غير واسطة بينه وبين ربه من رسول ، أو أي حجاب مفروض وأنّ الوحي في جميع هذه الأقسام لا يخرج عن كونه صادر عن الذات العليا الله جل جلاله وتعالى قدره [٣].

إنّ أول صور الوحي المحمدي ، كان الرؤيا الصادقة ، وهي جانب مهم من جوانب التلقي الغيبي في نبوات الأنبياء ، لأنّ كون لقاء الوحي عن طريق المنامات وجهًا من وجوه الوحي التي كانت للكثير من الأنبياء ، وقد ذكر القرآن الكريم هذا الأمر بوضوح في الإشارة إلى رؤيا إبراهيم [٤] ، وكذلك إلى رؤيا يوسف [٥] ، ومن الطبيعي أن لا يختلف نبينا محمد هذا التشريف والتكريم الآلهي عن غيره من الأنبياء ، إذ أنّ الرؤيا في نبوته مثلت أحد الجوانب المهمة التي شهدتها عملية تلقيه للوحي ، وهي أيضًا أحد العوامل التمهيدية التي هيأت لبزوغ نبوته وبداية رسالته [٦] ، وبشأن الرؤيا الصادقة التي رافقت النبي قبل مبعثه ورد عن السيدة عائشة أنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح ... [٧] ، والصورة الثانية للوحي ، هي الوحي بوساطة الملك الصورة ، نجد الأمين جبريل ، وفي هذه الصورة وقد تكفل بنقل الكلام الإلهي وتبليغه إلى النبي الكريم ، وقد عبر القرآن الكريم عن الوحي بوساطة الملك

(١) سورة يوسف ، الآية : ٣
(٢) سورة البروج ، الآية : ٢٠.
(٣) الميزان في تفسير القرآن ، الطباطبائي ، ١٨/ ٧٥.
(٤) سورة الصافات ، الآية : ١٠٢.
(٥) سورة يوسف ، الآية : ٤.
(٦) الوحي ودلالاته في القرآن ، ستار جبر الأعرجي ، ١٣٤ .
(٧) صحيح البخاري ، البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (ت : ٢٥٦ هـ) ، ١ / ٦ البداية والنهاية؛ القرشي ؛ أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت : ٧٧٤ هـ) ، ٣/ ٢-٣.

في قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [١] ، وقوله جل وعلا : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ.... ﴾ [٢] وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [٣] ، واتخذ الوحي بوساطة الملك إلى النبي محمد عدة أشكال قد أجملها صاحب كتاب (الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي) [٤] بالآتي :

أولا : مواجهة جبريل للنبي في صورته الملكية الحقيقة التي خلقه الله عليها ، وقيل أنّه ما من نبي رآه على تلك الصورة ، إلا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد حدث ذلك مرتين ، ثانيًا : تمثل جبريل في صورة بشرية فيراه النبي في صورة إنسانية ويتحدث معه، وهذا ما أكدته الرواية المنقولة عن السيدة عائشة : إنّ الحارث بن هشام سأل رسول الله : قال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي . فقال.... وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا يكلمني فاعي ما يقول [٥].

ثالثًا : تمثل جبريل للنبي محمد في النوم وذلك بأنّ يأتيه الملك جبريل في النوم بصورة بشرية غير معروفة لديه ، ليبلغه بما أمر الله تعالى به ، أمّا الصورة الثالثة من الوحي فهي الوحي المباشر الذي يتم بدون أي شكل من أشكال الوسائط عندما يكون الوحي منه تعالى مباشرة إلى النبي رغم أنّ هذه الصورة من الوحي لا يوجد ما يؤكد تكرارها آلا أنها قد تمت فعلًا ، وأكد ذلك قول الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [٦] . وتظهر الأشارة بوضوح في هذه الآيات لتكليم الله سبحانه وتعالى نبيه محمد دون أي واسطة [٧] .

(١) سورة الشعراء ، الآيتان : ١٩٣ – ١٩٤ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٩٧.
(٣) سورة التكوير ، الآيتان : ١٩ – ٢٠.
(٤) الوحي ودلالاته في القرآن الكريم ، ستار جبر الأعرجي ،١٤١ – ١٤٢.
(٥) البداية والنهاية ، ابن كثير ،٣ / ٢١.
(٦) سورة النجم ، الآيات : ٨١٠.
(٧) الوحي ودلالاته في القرآن الكريم ، ١٥١ .

ثالثًا: رؤية المستشرقين للوحي الاسلامي

الوحي كظاهرة ارتبطت بالنبوة وعلى هذا الأساس ، فمن مقومات تصديق نبوة أي نبي هي حقيقة المصدر الإلهي للوحي ، ولما كان الوحي الأساس الأول ، والجوهر الحقيقي لمعنى النبوة والرسالة والوساطة للأخبارالغيبية ، والأوامر الآلهيه في قضايا العقيدة والشريعة فقد اعتنى المستشرقون ومنذ وقت مبكر يعود إلى العصور الوسطى الأوربية بدراسة الوحي ومحاولة

إيجاد تفسير مناسب لهذه الظاهرة ، يتوافق مع التوجيهات الاستشراقية الهادفة إلى إبعاد الوحي عن حقيقة صدوره الإلهي وجعله نابعًا من ذاته البشرية عليه أفضل الصلاة والسلام .

فكانت التصورات الأولى ، تصورات ساذجة وغير واضحة ، وبعيدة عن الواقع وتتأثر بتيار الحقد والكره الكبيرين في حقبة العصور الوسطى ، فضلًا عن قلة المعلومات عن رسالة النبي وتشويه ما وصل منها بوساطة المصادر البيزنطية ، فمن أوائل من تناول هذا الموضوع هو جيبرت أوف نوجنت ، الذي صور النبي محمد على أنه استخدم بقرة قام بتدريبها ، لتظهر أمام الناس بأنها تحمل إليه الوحي من الله تعالى ، وهذا نموذج مما جاء في تلك الكتابات : وأمر محمد المؤمنين به أن يصوموا ثلاثة أيام ، ثم أعلن في هدوء أنه سيريهم كيف ينزل الوحي ، وفجأة ظهرت بقرة وانتزعت من بين قرنيها كتابًا منزلًا وركعت البقرة أمام النبي. في حين أنّ الاسقف هيلدبرت (Hildbert) قد ذكر في كتاباته عن حياة النبي أنّه استعان في تأكيد صدق دعوته بثور دربه سرًّا فأصبح قادرًا على توجيهه كيف شاء فكان الثور يركع أمام النبي كلما أمره بذلك [1]، وعلى هذه الشاكلة كانت تنسج الافتراءات والمزاعم لتجعل منها تارة بقرة وأخرى ثورًا وثالثًا جملًا [2] ، وعلى أية حال فإنّ مستشرقي العصور الوسطى لم ينظروا إلى الوحي الاسلامي ، إلّا كنوع من الاحتيال تمت ممارسته

(١) الحضارة الإسلامية ، خودا بخش ،٤٦ – ٤٨

(٢) م.ن ، ٤٨ .

لإقناع الناس بالدين الجديد (الدين الإسلامي) وإبعاد الشك عن قلوبهم باستخدام هذه الحيوانات المدربة ، والحقيقة أنّ ظاهرة الوحي لم تُطرح عند المستشرقين برؤيا واحدة بل حملت كتاباتهم رؤى متعددة خلال العصر الحديث يمكن أن نقف عليها:

الوحي بمعنى نوبات من الصرع على ما يبدو أنّ إطلاع بعض المستشرقين على مصادر السيرة وهي تصف ما يصيب النبي محمد من أعراض أثناء تلقيه للوحي من الإمارات الخارجية التي تظهر على وجهه وجبينه وعيناه، من شحوب أو احتقان أو تصب العرق على وجهه ، أو ما يرافق ذلك من أصداء ، أو أصوات مثلما تذكر الروايات الإسلامية [١] فعن السيدة عائشة قولها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقاً [٢] ، وعن عبد الله بن عمر: قلت يا رسول الله هل تحس بالوحي قال : نعم أسمع صلاصل ثم أثبت عند ذلك ، وما من مرة يوحى إلي إلّا ظننت أنّ نفسي تفيض مني [٣] إنّ الأعراض الخارجية هذه والتي وصفت النبي جعلت من بعض المستشرقين يتصورون أو يصورون على ان ما كان يصيب النبي من أعراض خارجية ما هي إلا نوبات من الصرع ، وأنّ تلك النوبات حينما تُصيبه كان يغيب عن صوابه ، ويسيل العرق منه وتعتريه التشنجات فإذا ما أفاق من الغيبوبة ذكر أنّه أوحي إليه وتلا على أتباعه ما يزعم أنه من وحي ربه [٤].

ومنهم قد كفانا عن الرد على هذه الرؤية الخاطئة المستشرق الإنكليزي وليم ميور الذي قال : وتصوير ما كان يبدو على محمد في ساعات الوحي على هذا النحو الخاطئ من الناحية العلمية خطأ كبير فنوبة الصرع لا تترك عند من تصيبه أي ذكر لما مر به أثناءها ، بل يصاب بالنسيان خلال هذه المدة من حياته بعد ان يفيق نسيانًا تامًا و لا يذكر شيئًا مما صنع ، أو حل به خلالها لأنّ حركة الشعور والتفكير تتعطل عنده تمام العطل ، وهذه أعراض كما ثبتها

(١) فضائل القرآن النسائي ، احمد بن شعيب (ت ٣٠٣ هـ) ، ١ / ٥٩ .
(٢) البداية والنهاية ، ٣ / ٢١ .
(٣) م.ن ، ٣/ ٢٢ .
(٤) حياة محمد الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ، رونالد فكتور بودلي ،٥٢ – ٥٣ .

العلم ، ولم يكن ذلك ما يصيب النبي العربي أثناء الوحي ، بل كانت تتنبه حواسه المدركة في تلك الأثناء تنبها لا عهد للناس به يذكر بدقة كل ما يتلقاه بعد ذلك على أصحابه ثم أنّ نزول الوحي لم يكن مقترنًا دوماً بالغيبوبة الحسية مع وجود الإدراك الروحي ، بل كثيرًا ما يحدث الوحي والنبي في تمام يقظته العادية [١].

الوحي بمعنى الحدس ، الهوس ، الأوهام ، الخداع لقد اتفقنا على أنّ ظاهرة الوحي على النبيّ محمد قد أخذت من مخيلات المستشرقين مأخذا واسعًا ، فتعددت وتنوعت رؤاهم وتصوراتهم عنها ، حتى ظهر التضارب والاختلاف في كتاباتهم فبينما نجد المستشرق وليم ميور يفند مزاعم من يقول : إنّ ما كان يصيب محمد ما هو إلا نوبات من الصرع، مستخدمًا الأدلة العلمية في طرح الحقيقة ، من المضحك جدًّا أن نجده في الكتاب نفسه يفقد تلك الروح العلمية عندما يصور الوحي وكأنه شئ من الوهم ، أو الحدس الصادر من الذات البشرية كان النبي قد تبناه على أنه وحي إلهي ، ولعل المستشرق ميور قد استفاد من أحداث رحلتي [٢] الرسول الكريم إلى الشام ليؤكد على تأثيرهما على عقله ، وتأملاته اللاحقة التي سبقت نزول الوحي الشريف ، عن طريق الآثار والرموز القديمة والأساطير اليهودية وتأثيرها عليه وهو يشاهدها لأول مرة ، ومن أداء المجتمع المسيحي والكنائس بكل طقوسها والتجمعات المسيحية المتكررة لأجل العبادة ، وكل هذه المشاهدات يراها ميور قد أستولت على انتباهه واهتمامه ، فأثرت تأثيرًا عميقًا في نفسه، فجعلته والمتتبع لكتاب ميور

(١) م.ن ، ٥٢ – ٥٣ .

(٢) الرحلة الأولى التي قام بها النبي محمد مع عمه أبي طالب إلى الشام كان بعمر تسع سنين ، وقد أتاحت هذه الرحلة الطويلة للنبي على الرغم من صغر سنه ان يشاهد مجموعة من القرى والمدن الواقعة على الطريق التجاري بين مكة والشام ، كما أنه قد شاهد رهبانا ونصارى يقيمون في تلك الأماكن . أما رحلته الثانية ، وهي إلى الشام أيضاً فكانت عندما كلفته السيدة خديجة (عليها السلام) القيام برحلة تجارية ، وقد أرسلت برفقته غلاما لها يدعى ميسرة ، فخرج رسول الله في أحدى القوافل المتجه لبلاد الشام فباع بضاعته واشترى ما أراد ، ثم أقبل راجعا إلى مكة ، فكانت تلك التجارة رابحة موفقة ، ويبدو أن عمره لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين في رحلته الثانية . ينظر : الطبري ، محمد بن جرير (٣١٠ هـ) ، تاريخ الرسل والملوك، ١ / ٥١٩ – ٥٢١ .

(حياة محمد من مصادرها الأصلية) يجد المؤلف فيه يحاول أن يجعل من تلك المشاهدات، وقد أثرت في نفس النبي ينصرف إلى التأمل والتفكير المنعزل والطويل بحثاً عن الدين الحقيقي ، وفي غمرة هذه الظروف توهم النبي بأنه يتلقى وحيًا من الله. ولكي يدعم فرضيته هذه يقدم ما يعتقده دليلًا فيشير إلى أنّ النبي قد استخدم الوحي لتحقيق أهداف وغايات دنيوية لمصلحته ، ويستدل على ذلك بالآية (٣٧) من سورة الأحزاب [١] ، والتي أمره الله سبحانه وتعالى فيها بالزواج من السيدة زينب بنت جحش (رضي الله عنها) وعلى أساس هذا (الدليل الصارخ) يرفض ميور أن ينظر إلى الوحي على أنه صادر من الله تعالى ، ويؤكد على كونه مجرد حدس ، أو وهم لا يتعدى في صدوره عن الذات البشرية،وليس بعيداً عن طروحات ميور نلاحظ المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون يقتفي النهج نفسه في نفي تهمة الصرع عن النبي محمد ، ولكنه في الوقت نفسه يصف الوحي بالهوس . وخيرًا لنا أن نقتطف نصًّا من كتاباته يقول فيه : وقيل أنّ محمدًا كان مصابًا بالصرع ولم أجد في تواريخ العرب ما يبيح القطع في هذا الرأي ، وكل ما في الأمر هو ما رواه معاصرو محمد وعائشة منهم ، من أنه كان إذا نزل الوحي عليه اعتراه احتقان وجهه ، فغطيط فغشيان وإذا عدوت هوس محمد ككل مفتون وجدته حصيفًا سليم الفكر، ويجب عد محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كما هو واضح وذلك كأكثر مؤسسي الديانات .... فأهل الهوس وحدهم هم الذين ينشئون الديانات [٢].

وعلى هذه الشاكلة تتسابق خيالات المستشرقين لتفسير الوحي الاسلامي غير أنّ هذه التفاسير لا تحاول أن تقترب من حقيقة هذا الوحي ، بل وكأنها لا تريد ألا أثبات المرجعية الناشئة في صدوره من النفس البشرية ونفي حقيقته الإلهية .

كما لم يفوت بعض المستشرقين من أن يوجهوا لشخص النبي الكريم تهمة خداع المسلمين

(١) قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا ﴾

(٢) حضارة العرب ، غوستاف لوبون ،١١٤ .

في قضية الوحي في قولهم : بأنّ محمدًا لم يكن يؤمن بما يوحى إليه ، وأنّه لم يتلق الوحي من مصدر خارجي عنه بل أنّه ألف الآيات عن قصد ، ثم أعلنها للناس بصورة خدعهم بها وجعلهم يتبعونه فضمن لنفسه بذلك من السلطة ما يرضي طموحه وحبه للمتعة [١] ، ولقد كان الأديب الإنكليزي توماس كارليل أول من انبرى لدحض هذه السخافات مصرحًا بأنه من العار على أي متمدن أن يصغي إلى هذه التهمة وأن يصغي إلى ما يظن أنّ محمدًا كان خدّاع ومزورًا [٢].

ومن اللطائف الإلهية أن يتوجه من بين المستشرقين من يفند بإدلة منطقية تلك الأدعاءات حين قال : ومثل هذه النظرة للأمور غير معقولة ؛ وذلك لأنّها لا تفسر لنا بصورة مرضية لماذا كان محمد في الحقبة المكية مستعدًا لتحمل جميع صنوف الحرمان ، ولماذا فاز بأحترام رجال شديدي الذكاء ذوي اخلاق مستقيمة ، كما أنّ ذلك لا يجعلنا نفهم كيف نجح في تأسيس ديانة عالمية أنجبت رجالًا قداستهم واضحة للعيان لا يفسر كل ذلك بصورة مرضية إلا إذا افترضنا صدق محمد ، أي أن نعتقد بأنه كان مقتنعًا حقًا بأنّ القرآن ليس ثمرة خياله بل أنّ كل ما نزل عليه كان من الله [٣]

رابعًا : الرؤية الاستشراقية الأخيرة للوحي

بين مجموعة كبيرة من دراسات المستشرقين ، والتي لا تخرج في نظرتها للوحي عما ذكرناه ، نقف على رؤية المتخصص الأول بين الغربيين في سيرة النبي المستشرق الإنكليزي مونتجمري وات الذي يعد ممثلًا بكتاباته لوجهة نظر الغرب في السيرة النبوية ، ويؤكد هذا الأمر المستشرق فرانسسكو غار بيلي بقوله : أنّ مؤلفات وات التي امتد تأليفها بين سنوات (١٩٥٠ – ١٩٦٠) تمثل آخر وجهة نظر علماء الغرب بالنسبة إلى نبي الإسلام. لقد نال الوحي الاسلامي عناية كبيرة من لدن هذا المستشرق ، إذ افرد الفصول والمباحث لمناقشته ، ووصل به الأمر إلى أن أصدر كتابًا مستقلًا بموضوع الوحي حمل عنوان :(الوحي

(١) محمد في المدينة ، مونتجمري وات ، ٤٩٥ .
(٢) الأبطال ، توماس كارليل ، ٥٨ .
(٣) محمد في المدينة ، ٤٩٥ .

الإسلامي في العالم الحديث) فكان من بين أواخر مؤلفاته عن الشرق الإسلامي .

عد المستشرق وات أنّ النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كان صادقًا في القول مخطأ بالاعتقاد بشأن الوحي بمعنى أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يسع لخداع أتباعه عندما ادعى بأنّ الله تعالى إنزل الوحي عليه ؛ ولذلك فهو صادق في القول لأنّه لم يشأ ممارسة الخداع ولكنه في الوقت نفسه مخطأ بهذا الاعتقاد ؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى لم ينزل الوحي عليه كما أعتقد هو لذلك فهو لم يسع إلى الخداع والتحايل ولنقتطف نصًّا بهذا الشأن : فالقول بأنّ محمدًا كان صادقًا لا يعني أنّ القرآن وحي حق وأنّه من صنع الله ، إذ يمكن أن نعتقد بدون تناقض أنّ محمدًا كان مقتنعًا بأنّ الوحي ينزل عليه من عند الله ، وأن نؤمن في الوقت نفسه بأنّه كان مخطأ [1].

الخاتمة

بعد أن منّ الله تعالى علينا بفضله لإنجاز هذه الدراسة لابد من ذكر أهم النتائج التي توصل إليها الباحث فقد تناولنا علاقة الاستشراق بالقرآن الكريم ، وقد وجدنا أنّ القرآن الكريم كان أحد أهم الموضوعات الاستشراقية التي أثارت اهتمام المستشرقين ، ووجدنا أنّ هذا الاهتمام الذي بدأ كبيرًا بموضوع القرآن الكريم هو نتيجة للدافع الديني الذي كان يحرك ويغذي العقلية الاستشراقية في الخوض بهذه الدراسات لا ، بل ويوجه هذه العقلية نحو الأهداف التي تضعها المؤسسة الدينية المسيحية ومن المؤكد أنّ هناك دوافع أخرى غير الدينية قد دعمت هذه الدراسات وقد لاحظنا أن القرنين والنصف الأخيرين قد شهدا تخصصا في الدراسات القرآنية عند المستشرقين ، منها ما هو يهتم بالجانب اللغوي للقرآن، ومنها ما يهتم بالجانب التاريخي ، ومنها ما يهتم بتفسير النصوص القرآنية ، والملاحظ أنّ غالبية هذه الدراسات التخصصية تشترك بصفة واحدة تقريبًا وهي أنّ مؤلفيها يبحثون عن كل ما من شأنه تأكيد الثغرات ، ونقاط الضعف على النص القرآني.

(١) محمد في المدينة ، ٤٩٦ .

المصادر والمراجع

١. خير مانبتدأ به القرآن الكريم.

٢. اهتمام المتشرقين بالفكر العربي الاسلامي القديم ، مجلة الاستشراق ، البير نصري نادر، العدد الأول (بغداد (١٩٨٧).

٣. الأبطال ، توماس كارليل ، ترجمة محمد السباعي ، (بيروت – ١٩٦١) ، مختار الصحاح ، الرازي ، دار الاميرة ، بيروت ، ٢٠٠٨.

٤. الدراسات العربية الاسلامية في الجامعات الالمانية ، رودي بارت ، ترجمة مصطفى ماهر ، (القاهرة – ١٩٦٧).

٥. حياة محمد الرسول ، رونالد فكتور بودلي ، ترجمة عبد الحميد جودة السحار ومحمد محمد فرج ، (القاهرة – ١٩٦٤) .

٦. الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي ، ستار جبار الاعرجي ، دار الكتب العلمية ، (بيروت – ٢٠٠١).

٧. الميزان في تفسير القرآن ، سيد محمد حسين الطباطبائي ، دار الكتب الإسلامية ، ط ٣ ، (طهران – ١٩٧٦ م).

٨. الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي، ط١، (بيروت– (٢٥) (١٩٧٣).

٩. المستشرقون وترجمة القرآن ، محمد صالح البنداق ، (بيروت – ١٩٨٠).

١٠. محمد في المدينة ، مونتجمري وات ، ترجمة شعبان بركات ، المكتبة العصرية ، (بيروت – ١٩٥٢) .

١١. فضائل القرآن ، النسائي ، تحقيق، فاروق حمادة ، دار احياء العلوم ، ط٢ (بيروت – ١٩٩٢).

١٢. الاستشراق من منظور فلسفس عربي معاصر ، عبد الامير الاعسم ، مجلة افاق عربية ، (بغداد –١٩٨٧م).

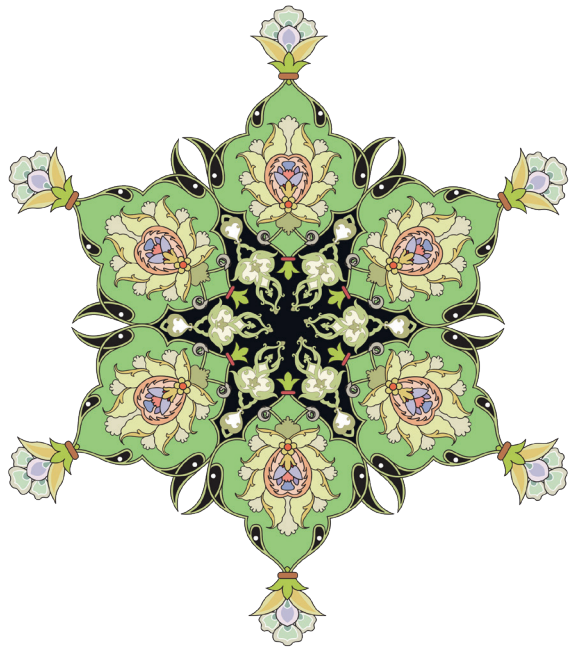

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ